٢١٠

أجلان

آرون كوبلاند
المؤلف الموسيقي المثالي

فنانة تتذكر لبنانها

بقلم هيلين الخال

كانت الفنانة عفاف زريق تقيم في واشنطن منذ عامين عندما استلمت سنة ١٩٨٥ صندوقا من بيروت يضم امتعة شخصية . وحتى ذلك الوقت كانت تعتقد ان اقامتها في الولايات المتحدة مؤقتةوانها ستعود بكل تأكيد الى لبنان قريبا . لكن مع وصول امتعتها ، برزت الحقيقة القاسية وهي ان نفيها سيطول .

وراحت تستخرج ببطء تذكارات ماضيها الثمينة ـ صور ورسائل قديمة ، مشغولات يدوية مختلفة ، كتب ، رسوم ، لوحات ، وشعرت في نفس الوقت بالالم البدني الحاد الذي يصاحب التذكر والحنين الى جنة مفقودة . وخلال الاشهر القليلة التالية ، امتلأ ذهنها بصور الطفولة البعيدة وانتجت مجموعة من ١٥ لوحة حول موضوع « لبناني انا » . وعندما استعادت حيويتها بفضل ذكريات زمن اكثر سعادة استمرت تعبر عن نفسها في اعمال متشابهة في مضمونها ، وانتجت سلسلة من الرسوم بالحبر والالوان عرضت منها ٥٥ رسما في المدة الاخيرة داخل غاليري اديسون ريبلي في واشنطن .

غاليري اديسون ريبلي الصغيرة ذات الجو الحميمي الدافىء كانت المكان الامثل لهذه النوافذ الهادئة المعلقة على جدارنها والتي تطل على لبنان . حجم هذه الرسوم متواضع واسلوبها بسيط لذلك لا ينبغي تأملها من مسافة بعيدة ، اذ تنفتح امامك مثل صفحات كتاب تضم قصائد وجدانية رقيقة تتطلب قراءة حساسة عن كثب .

وتكشف هذه التوليفات المركبة من صور رقيقة مرسومة بالخطوط مع رقع متوازنة من الالوان الصافية ، عن حساسية شديدة تجاه قدرة التصميم التجريدي على استثارة رد فعل بصري . وضعت الفنانة رسومها فوق قماش واستخدمت افضل استخدام المساحة البيضاء التي تعطي حيوية للاشكال والالوان . وتوحي هذه الرسوم فورا بمرور حلم مضطرب خارج نطاق الزمن . وفي مشهد تلو الآخر تعج برموز خاصة لتجارب لا تمحى ، تتذكر عفاف زريق لبنان الذي لن تنساه ابدا والذي ستبقى متعلقة به دائما .

تتذكر ايام الصيف المرحة التي كانت تقضيها طفلة في الجبل ، والسقوف القرميدية الحمراء ، واشجار الصنوبر فوق التلال ، وايام الشتاء في بيروت وتفتح الازهار فجأة بعد المطر ، واشجار النخيل والصبار والموز وبساتين الليمون على طول الشاطيء اللبناني ، والسطل والرفش الصغيرين اللذين كانت تحملهما طفلة فوق الشاطىء المشمس ووراءها البحر الواسع المتلألىء . والبناية المرتفعة ذات الشرفات الجميلة التي كانت تسكنها ، وحرم الجامعة الاميركية ومقاعدها الخشبية وحدائقها الظليلة ، وسيارات السرفيس في شوارع بيروت الضيّقة ، وتمائم الصدفة والسمكة والخمسة لاتقاء الاعين الشريرة ... والهلال تحلم به ما تشاء .

ويتخلل كل ذلك حنين أخاذ عليه مسحة من حزن حينا ودعابة حينا آخر ، لكنه مشبع دائما بالحب . لكنك لا ترى احدا اينما تطلعت . فمقاعد الحدائق دائما فارغة ، وشوارع بيروت صامتة وخالية من الناس ، وسيارات التاكسي لا تحمل ركابا . غير ان الوجود البشري الذي تتجاهله الفنانة عمدا يؤكد نفسه في البنايات المختلفة التي تتذكرها الفنانة جيدا وتدخلها في العديد من رسومها . وتبدو جميعها بمثابة وجوه بشرية تحدق في المشاهد بنظرة هادئة متسائلة . فالنوافذ المزودة بمصاريع تصبح اعينا اما مغلقة من الحياء او مفتوحة مندهشة . ولا دعابة هنا ، اذ ان البنايات تتأمل منعزلة دون ابتسام .

وفي هذا العنصر الخاص من فنها تسجل عفاف ردها النهائي على تجربة الحرب : نوع من فقدان الايمان بالانسان ، القبول النهائي للوحدة باعتبارها من شروط الحياة التي لا مفر منها ، والادراك بأن الحياة تستمر مهما حدث . وليست هذه الرسوم اقل من عصارة لتجربة كاملة ـ استيعاب كافة الاحداث والظروف ، حلوها ومرها . الذي يعطي لحياة كل انسان شكلها ـ لا يصل اليها المرء الا بعد سنوات من البحث عن التوازن العاطفي .

عندما غادرت عفاف زريق بلادها المضطربة عام ١٩٨٣ بحثا عن حياة اكثر هدوءا في الولايات المتحدة ، تألمت من انتقالها المادي وتحملت الكرب المتواصل لانها رأت نفسها مضطرة لزرع جذورها في ارض غريبة . ولحسن الحظ ساعدتها الفتها مع الحضارة الاميركية على تسهيل انتقالها الى حياتها الجديدة . وكطالبة في لبنان كان تعليمها اميركي الاتجاه منذ المدرسة الابتدائية حتى الجامعة . وعندما انهت دراستها في الجامعة الاميركية ببيروت ونالت شهادة البكالوريوس في الفنون الجميلة ، ذهبت الى الولايات المتحدة لكي تتابع دراستها بعد التخرج في الفن الاسلامي بجامعة هارفرد .

وتتذكر عفاف ان تجربتها في هارفرد كانت مغامرة فكرية حافزة . وبفضل دراستها المتعمقة للفن الاسلامي تعرفت على التنوع اللامتناهي في التعبير عن طريق التفاعل بين الألوان وعن طريق علاقات المساحات المنظمة في العمارة . هذه العناصر حملت الجوهر الروحي للاسلام اكثر من التصميم الهندسي او الخط او الارابسك ، وفي نفس الوقت لامست وترا متجاوبا في طبيعة فنها .

بعد ان اكملت الماجستير في هارفرد عادت عفاف متحمسة الى لبنان ، النبع الذي ترتوي منه روحها ، لكي تباشر حياتها المهنية . وفي عام ١٩٧٣ بدأت تدرس الفن في كلية بيروت الجامعية واستمرت في الرسم . وكان هذا هو بالضبط نمط الحياة الذي تريده . لكن بعد ذلك بعامين فقط بدأ عالم عفاف الآمن والسعيد بالانهيار .

تقطن عفاف الآن نجدا من الهدوء العاطفي والوضوح ، تتطلع منه الى السنوات المضطربة التي عاشتها في وطنها خلال الحرب على انها فترة ذات مغزى عميق في تكوينها كفنانة . وتقول : « لقد

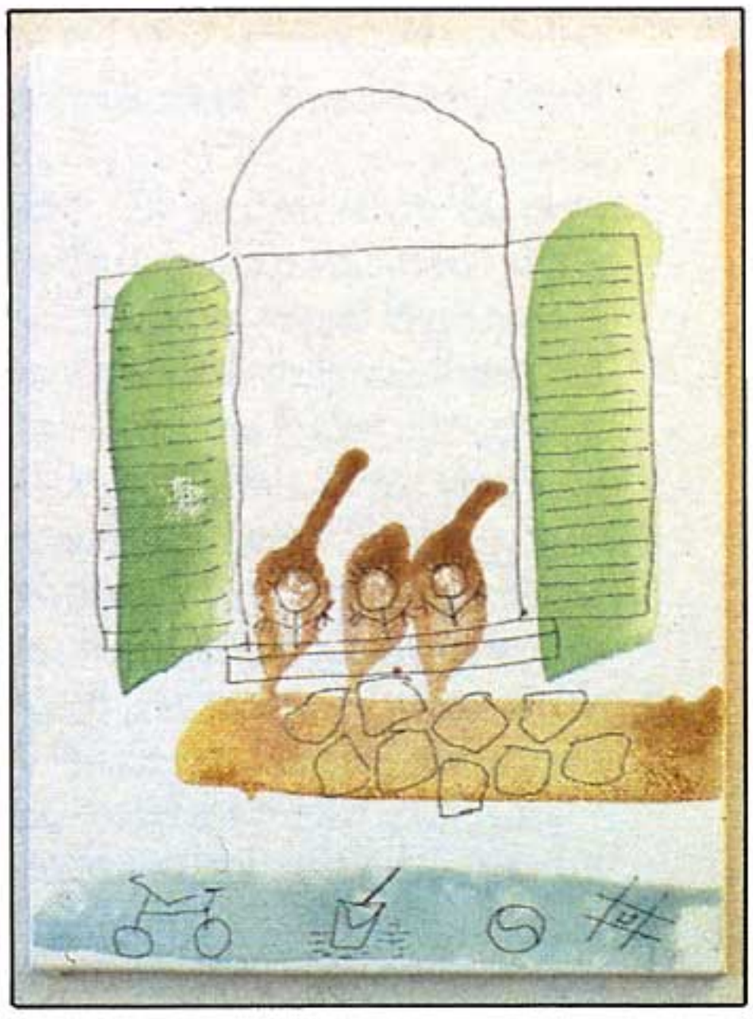

نافذة لبنانية ، ١٩٨٦

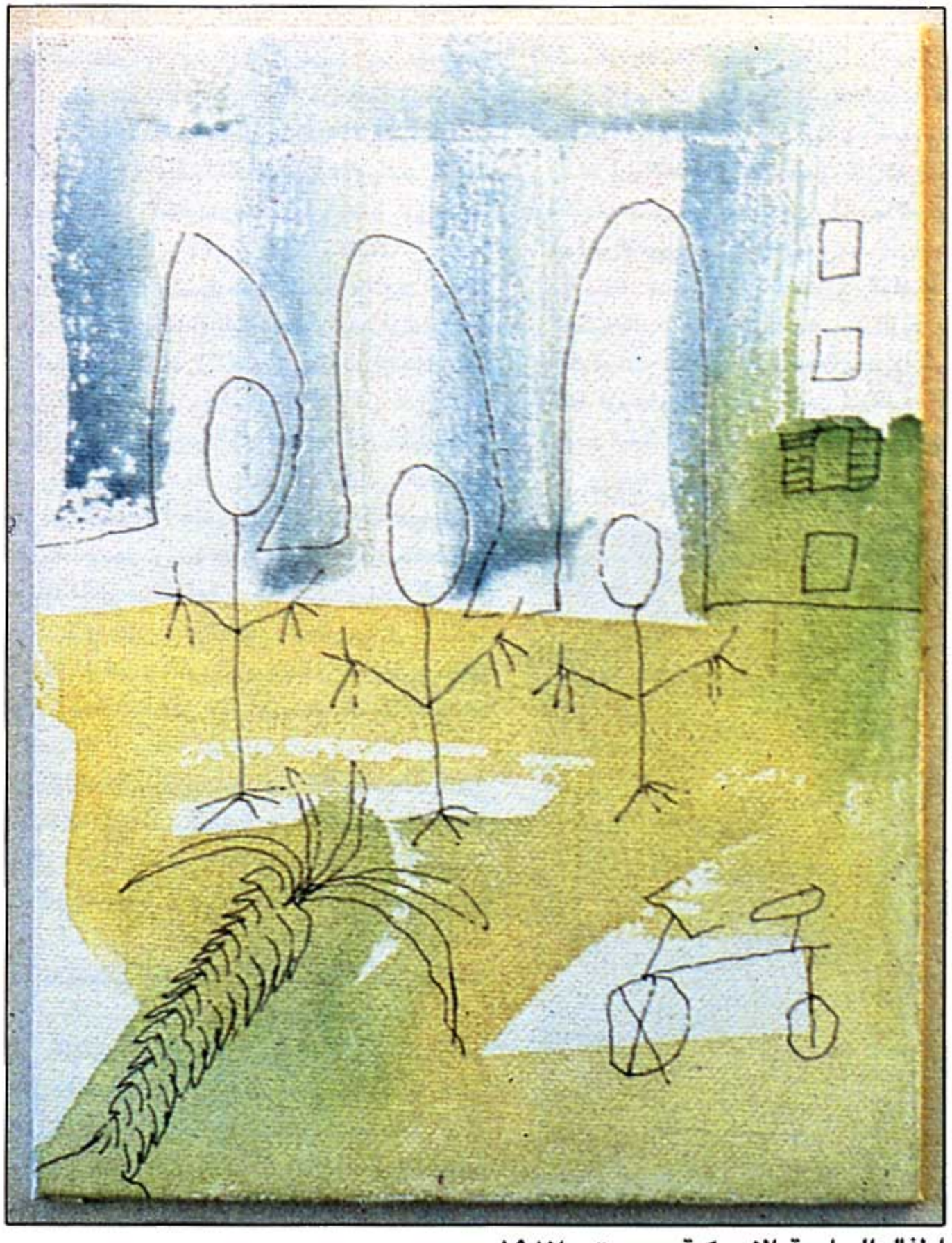

اطفال الجامعة الاميركية ببيروت ، ١٩٨٧

غيرتني تماما كانسانة ، كان الالم والخوف والرعب التي شعرت بها قوية جدا هزت اعماقي .... وانعكست في فني . فوجدت نفسي ارسم اشخاصا مفرغين من اية مشاعر وكأنهم تعرضوا لصدمة اغماء تخشبي واصبحوا عاجزين وبالكاد احياء ... »

وفي سلسلة من اللوحات الزيتية التي رسمتها عفاف اثر الاجتياح الاسرائيلي عام ١٩٨٢ ، عبرت عن المأساة الانسانية العميقة التي تحيط بها . ففي سلسلة من اللوحات الرمادية الكئيبة رسمت اشكالا كثيفة مجردة توحي بأنها شطري جسم الانسان بتلامسان وينبضان بتوفر محبوس باحثين عن الهرب .

مثل هذا التعبير الوجودي القاسي كان غريبا تماما عن طبع عفاف كانسانة وعن مخيلتها الخلاقة كفنانة . ومنذ طفولتها استحوذ على مخيلتها سحر الالوان والاضواء ، وكلما حصرها المرض في الفراش كان الكتاب الوحيد الذي يعزيها في المها هو كتاب يضم صورا على كامل الصفحة للرسامين الانطباعيين الفرنسيين وقد ملأ العالم الهادىء المرح الذي رسموه مخيلتها وكان له اثر لا ينكر على قرارها لاحقا في ان تصبح فنانة . واثناء دراستها في الجامعة الاميركية ببيروت حاولت عفاف ان تخلق عالما مماثلا في لوحاتها ، ارادت ان تترجم الالوان النابضة بالحياة والمشبعة بضوء الشمس لجبال لبنان وشواطئه ، وان ترسم بلادها على غرار ما رسم الفنان سيزان المناظر الطبيعية في اكس ان بروفنس .

قبل الحرب كانت ترسم سلسلة من اللوحات الصغيرة بالالوان المائية المضيئة من النوع التجريدي وذات المحتوى الصافي . ثم جاءت تلك الأيام والأسابيع والاشهر والسنوات التي لا تنتهي والتي شاهدت فيها عفاف العنف والرعب والموت ... ثم تلتها سنوات تخدر فيها قلبها وبهتت فرشاتها . استمر ذلك حتى عام ١٩٨٤ حين راحت تعلم الرسم لابنة اخيها التي كانت في الرابعة من عمرها ، فانفتحت مجددا ابواب الابداع امامها . وتأثرت عفاف بعفوية تلميذتها الصغيرة وحريتها الحدسية في التعبير ، فملأت هي بدورها خشبتها بالالوان وامسكت بالريشة واستعادت شجاعتها فجأة على مواجهة الحياة وباشرت رحلتها المليئة بالامل الى الوطن . ■